

برنامج أنوار كاشفة

سفر الجامعة

الحلقة التاسعة والثلاثون

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. مازلنا ندرس سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تابع سليمان الحكيم في اللقاء الماضي الحديث عن قراراته العملية. فتكلم عن مخاطر أي مشروع أو عمل جديد، وأهمية دراسته والتخطيط له بدقة، قبل البدء به. ونبر على ضرورة امتلاك المهارات اللازمة والأدوات الضرورية لنجاح المشروع، وحساب التكاليف بشكل صحيح.

هل تدري مستمعي أن الكلام الذي نتكلم به عادة يكشف حقيقة نفوسنا؟ فالكلام يدل إذا كنا نتكلم عن معرفة أو عن جهل، أو إذا كنا نترك أثراً حسناً على السامع، أم على العكس نؤثر عليه سلباً. ويكشف كلامنا أيضاً إذا كنا حكماء أم جهلاء. حول هذا الموضوع الهام كتب سليمان الحكيم قائلاً: « كلمات فم الرجل الحكيم مفعمة بالنعمة، أما أقوال شفطي الأحمق فتبتلعهُ » (الجامعة ١٠:١٢ تفسيرية). أي أن كلمات الإنسان تكشف حقيقة نفسه. فبينما تكون كلمات الحكيم مليئة بالنعمة، وتتلى بالإيجابية، تكون كلمات الجاهل مدمرة حتى لنفسه.

وكان سليمان الحكيم قد كتب في سفر الأمثال بنفس المعنى قائلاً: « الحكماء يذخرون معرفة. أما فم الغبي فهلاك قريب » (أمثال ١٠:١٤). أي أن الحكيم يمتلئ من المعرفة الصحيحة، بينما الجاهل يجلب الدمار. وهذا يتجلى بكل وضوح في كلامهما. على ضوء هذه الحقائق الهامة، هل تراك تنتبه مستمعي لما تقول؟ أم تظن أن الأمر مجرد كلام بكلام؟ وهل تعلم أن مصيبة الكثيرين من الناس هي أنهم لا ينتبهون لكلامهم، فيوقعون أنفسهم في مشاكل كانوا بغنى عنها. وهل تسعى لكي تزود نفسك بالمعرفة الصحيحة قبل أن تتكلم؟

وتابع سليمان الحكيم فوصف كلام الجاهل قائلاً: « بداية كلمات فمه حماقة، وخاتمة حديثه جنون خبيث » (الجامعة ١٠:١٣ تفسيرية). أي أننا نستطيع أن نعرف الجاهل بمجرد أن يفتح فمه للكلام، لأنه لا يتكلم إلا بكلمات الحماسة. وإذا تابعنا كلامه إلى النهاية فسنكتشف أنه مجرد جنون خبيث، أي بلا فائدة ولا معنى.

أليس هذا ما نلاحظه مستمعي مع الأسف على بعض الناس؟ فهم لا يتكلمون إلا بحماقة وجهل. ولهذا من الأفضل لنا أن نتجنب أمثال هؤلاء الناس. وكشف لنا الحكيم أمراً آخر بالنسبة للجاهل فكتب قائلاً: «والجاهل يُكثر الكلام. لا يعلم إنسان ما يكون وماذا يصير بعده مَنْ يُخبرُهُ» (الجامعة ١٠:١٤). إن من صفة الجاهل أنه يكثر الكلام غير المسؤول والذي لا معنى له. ولا يكون هناك من يتابع كلامه، لكي يثبت له عدم صحته، وليكشف له حقيقة جهله. والسبب لأن الجاهل لا يقبل أن يناقشه أحد بكلامه أو يضع حداً له، فلقد أعمى الجهل بصيرته.

وختم سليمان الحكيم حديثه عن الجاهل بالقول: «كُدُّ الجاهل يعييه، لأنه يضل طريقه إلى المدينة» (الجامعة ١٠:١٥ تفسيرية). أراد الحكيم القول: أن الجاهل بسبب جهله، حتى وإن كد وتعب، فهو يفشل في الحصول على مبتغاه. وهو يضل حتى طريقه، إلى المدينة التي يريد الذهاب إليها. وكما هو معروف، فإن الطرق في زمن سليمان الحكيم لم تكن معبّدة أو من الممكن معرفتها. ولم تكن هناك خرائط ترشد المسافرين. لكن المسافرين كانوا يعتمدون على اتجاه الشمس، في معرفة الجهات. وأيضاً على خبرة الآباء والآخرين في اكتشاف طريقهم.

إن المقصود بهذا المثل أن الجاهل حتى ولو تعب وكدّ، فمن المستحيل أن يحقق أي نجاح في هذه الحياة. فجهله قد أعمى نفسه، ومنعه من القيام بأية خطوة تجاه ما يريد. إن هذا يؤكد لنا خطورة الجهل على حياتنا كلها. فهل ترانا نسعى لكي ندرك الحكمة الحقة ونعمل من أجل امتلاكها؟

تحدّث الرسول يعقوب من رسل المسيحية الأوائل، عن أهمية الكلام في حياتنا بشكل عام، وضرورة الانتباه لكلامنا، فكتب قائلاً: «إن كان أحد لا يعثر في الكلام فذاك رجل كامل قادر أن يلجم كل الجسد أيضاً. هوذا الخيل نضع اللجم في أفواهها لكي تطاوعنا فندير جسمها كله. هوذا السفن أيضاً وهي عظيمة بهذا المقدار وتسوقها رياح عاصفة تديرها دفّة صغيرة جداً إلى حيثما شاء قصد المدير. هكذا اللسان أيضاً وهو عضو صغير ويفتخر متعظماً. هوذا نار قليلة أيّ وقود تُحرق. فاللسان نارٌ. عالم الإثم. هكذا جعل في أعضائنا اللسان الذي يدنس الجسم كله ويضرم دائرة الكون ويضرم من جهنم» (رسالة يعقوب ٣:٢-٦).

لقد شبّه الرسول يعقوب الكلام بلجام الخيل الذي يقودها، وبدفة السفينة التي توجّهها إلى حيث ما نريد. وقال إن اللسان عن طريق الكلام الذي نتقوه به، يستطيع أن يدنّس جسمنا كله، ويضرم النار بما يحيط بنا. أي يُفسد عالمنا الذي نعيش فيه. مع العلم أن إضرار اللسان يكون من جهنم. لقد أراد الرسول يعقوب أن ينبهنا إلى أهمية الكلام الذي نتقوه به، وحذرنا من الكلام الباطل السيء الذي يمكن أن يفسد حياتنا وحياة الناس من حولنا. لعلّ السؤال الآن: كيف بإمكاننا أن نحفظ لساننا من الكلام الفاسد الهدام وأن نجعله لساناً ينطق بكلام بناء ومفيد؟

تخبرنا كلمة الله كما جاءت في الكتاب المقدس، أن كلامنا لن يتبدّل، ولن يصبح كلاماً نافعاً مفيداً، إلا إذا تبدّلت قلوبنا من الداخل. وهذا لن يحصل إلا عندما نؤمن بالمخلص المسيح، الذي أرسله الله لكي يفدينا على الصليب، وليحررنا من عبودية الخطيئة وأعمال الجسد، وعلى رأسها الكلام الذي يصدر عن لساننا.

ألا ترغب مستمعي أن يصبح كلامك كلاماً مفيداً نافعاً لك وللآخرين؟ لم لا تأتي الآن تائباً عن ذنوبك ومؤمناً بالمخلص المسيح؟ الذي وحده يقدر أن يحررك فعلاً من قيود الخطيئة ويجعل كلامك مفيداً وبناءً ومليئاً بالحكمة!